

---

## «مرتكزات السيطرة الغربية»<sup>(\*)</sup> لفردريك معتوق قراءة الغرب معرفياً

---

عبد الغني عماد

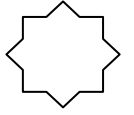
يتحكم في أي مقارنة، نموذج إرشادي، يدفع في اتجاه تبين أحكام، وقيم، ومعايير. وقد ساد في هذا المجال اتجاهان: الأول يتمثل بأطروحة متمركزة حول الإنسان باعتباره كائناً معرفياً، وكيناً ثقافياً مركباً ومتعدد البعد، صاحب وعي تاريخي ومنظومة فكرية وأخلاقية. والثاني بأطروحة متمركزة حول الطبيعة، وفيها كينونة حتمية، لا يشكل الإنسان فيها أي مكانة خاصة، فثمة "قانون طبيعي" واحد صارم يسري على كل الكائنات. وهي أطروحة تحولت إلى مرجعية نظرية في عصر النهضة، وإلى نموذج تفسيري شمل الطبيعة والمادة بما فيها الإنسان.

ومع ظهور مفهوم الإنسان الطبيعي، ظهر مفهوم الإنسان الاقتصادي المتحرر تماماً من القيمة، تحركه قوانين الاقتصاد والمصلحة بغض النظر عن وقائع الاجتماع الثقافي والحضاري. هذا التمهيد ضروري لالتقاط المفاتيح المفهومية لأطروحة فردريك معتوق؛ التي يحاول فيها تقديم مقارنة سوسيو معرفية لافتة تهدف إلى الإجابة عن السؤال المركزي الآتي: لماذا يسيطر الغرب على العالم منذ ما يقارب خمسة قرون؟

هذا السؤال لا يشبه سؤال النهضة الكلاسيكي: لماذا تقدموا ولماذا تخلفنا؟ وجه الشبه شكلي جداً، ذلك أنه يفتح الباب أمام مقارنة تكمن أهميتها في أنها تتفحص التجربة الغربية، وتدرسها

---

(\*)



معرفياً، قبل أن تقوم بنقدها، إنها تريد أن تكشف عن مرتكزات القوة المتجددة فيها قبل أن تفتش عن عناصر الضعف فيها.

ولاشك في أن فهم ظاهرة الغرب يبدأ من فهم البنى المعرفية؛ التي تنتج وعي الغربيين لعالمهم والعالم المحيط بهم. وهي بنى معرفية تعتمد على محركات ذهنية Pulsions mentales تعمل على وقود الأحكام والأفكار والتصورات، وليس المشاعر والانفعالات كما في حال المحركات الغريزية؛ لذلك هي توسع إطار المفكر فيه وتعمق الرؤية نحو العالم، بل تعقلنها. يرى معتوق كوكبة المحركات الذهنية الخاصة بالغربيين تتمحور على خمسة عناصر تأسيسية، ساهمت ولا تزال في سيطرتهم على هذا العالم، وهي:

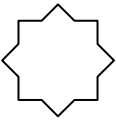
١- الهيمنة: ويخصص لها فصلاً يحلل فيه عناصر التفوق الغربي، ومؤسساته، ومسيرته، والتي من خلالها يعمد إلى تصدير "حضارته". والكلمة المفتاح لمحرك الهيمنة عند الغربي اليوم هي "العولمة". فهي البديل المعاصر لمشروعه التاريخي الاستراتيجي. فالعولمة هي إعادة تأهيل لنظرة الغربي إلى العالم بأدوات وتعابير حديثة، بعد الطلاق الإرادي الذي حصل بين الغربيين وبين فكرة الاستعمار اعتباراً من منتصف القرن العشرين. حيث إن العولمة تحمل في جوهرها جميع معاني فكرة الهيمنة الغربية التي حاكها الغرب منذ خروجه من القرون الوسطى. ولكن بما أن هذه المعاني لم تكن يوماً جامدة، بل يتحكم فيها دائماً عنصر العقلانية، والنزعة الأممية، ارتدت هذه المعاني في كل حقبة حلّة جديدة، وصيغت صياغة مختلفة، وأصبح اليوم الإعلان، والإقناع، وفتح الأسواق بديلاً من الطائرات والأساطيل.

٢- المجادلة السياسية أو البوليميك (POLémique): يشكل هذا المفهوم أحد أركان التفكير الغربي المعاصر، وهو مفهوم لا مثيل له في الحضارات الأخرى؛ لذلك يعجز الجميع عن ترجمته ترجمة تعكس المعنى الحقيقي الذي يقوم عليه. وجواباً على سؤال: من أين أتت هذه الميزة في الرؤية السياسية في الغرب؟ يرى معتوق أنها حصيلة تراكم بدأ مع الخروج من زمن القرون الوسطى، بحيث تم إنتاج موانيق سياسية مدنية للتفكير، والعمل السياسي، بحيث أصبح معها لا سياسة خارج إرادة المجتمع. فالسياسي اجتماعي في الصميم لا فوق المجتمع. من هنا تميزه بالطابع الحوارية في عمق أعماقه، وانفتاحه الدائم على البدائل. فالبوليميك على المستوى الفكري يلعب لدى الغربيين الدور الذي تلعبه البرلمانات على المستوى التشريعي والدستوري.

تتمثل القاعدة المعرفية لهذا المحرك الذهني بالعقلانية، ففي قلب المجادلة السياسية الغربية الحديثة هناك الإنسان، لا الخالق، والعقلانية مقياس الحقيقة، مما يجعل هذه الحقيقة نسبية ومتحركة. لذلك يتخطى الغرب نفسه باستمرار عبر دينامية مؤسساته، وبرلماناته، ودوله الحديثة. وهذا ما تفتقر إليه دول الجنوب لافتقار مجتمعاتها إلى رافعة ذهنية مماثلة في طرق التفكير، والتخطيط، وممارسة الشأن السياسي.

٣- المعرفة كمحرك ذهني في المجال الثقافي تستكمل ما تفعله الهيمنة، والمجادلة السياسية. ذلك أنه من المستحيل إرساء مشروع هيمنة دون تثبيته على قاعدة المعلومات والمعارف تتصف بالحيوية والتجدد؛ كي تبقى صالحة لهذه المهمة التفعيلية.

تشكل المعرفة في نظر الغربي شبكة فهم أيضاً، أي أنها تتفاعل مع نفسها ومع ما يقع خارجها، أي أن المعرفة خاضعة بدورها للمعرفة، يعاد إنتاجها على نحو مختلف؛ لذلك يتمكن



## مرتكزات السيطرة الغربية

### قراءة الغرب معرفياً

الغرب من إبقاء قاعدة معلوماته حية، وفوارة، وأداة تطوير، وتقدم، وإنجاز، الأمر الذي يعزز روحية البحث الذي تسبح فيه تلك المجتمعات. من هذا المنظور تصبح المعرفة رأسملاً يتيح إنتاج المزيد من التفوق.

٤- التنظيم وهو أيضاً محرك ذهني فعال، يرى معتوق أنه يقوم على فكرة بسيطة تهدف إلى التنسيق المناسب لعناصر متعددة لتأمين حسن العمل فيما بينها. الأمر الذي يعني أنه لا استمرار لكيان اجتماعي ما دون تنظيم لأداء العناصر المختلفة المشاركة فيه. فكل مجتمع يمتلك نوعاً من التنظيم تريده العناصر التي يتألف منها.

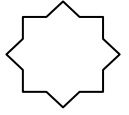
وقد شكّل التنظيم الاجتماعي الغربي الحديث، بنية جديدة من المفاهيم. فسلطة المسؤولين هي سلطة بالمشاركة، لا سلطة مطلقة تهبط عليه من فوق. ومعها أصبحت سيادة الفرد أساس هذا التنظيم الاجتماعي، وقاعدته الصلبة، وأصبحت الإرادة السياسية العامة مشروطة بالإرادة السيادة الشعبية، كما غدا التنظيم الاجتماعي مرهوناً بالتزامه بسيادة المجتمع على نفسه. وقد تولّد عن هذه اللحمة العضوية ما بين الشأن الاجتماعي الفردي والشأن السياسي العام هوية فذة، وغير مسبوق تاريخياً، بحيث أصبح التنظيم الاجتماعي الحديث يعمل في الاتجاهين، دون فصل بين مصلحة المواطن ومصلحة الدول.

٥- الربح كمحرك ذهني أيضاً قد يكون تعرض للتحليل من جانب العديد من المفكرين، إلا أن القراءة المعرفية كما يراها معتوق تفيد أن مفهوم الربح غدا مرتبطاً بفكرتي الحرية والأسواق المفيدتين لرب العمل والعامل على السواء، في المجال الجيوسياسي الغربي، في حين بقي العامل في دول الجنوب يمارس نشاطه المهني تحت سقف تأمين البقاء، وضمن جدران الإكراه. فلا إطلالة عنده على فكرة الربح والتراكم الرأسمالي.

تفيد هذه المقارنة أن ميزة التجربة الغربية تكمن في أنها لم تتخل عن التوزيع الطبقي للمجتمع، إلا أنها عمدت إلى توسيع هامش الطبقات الوسطى فيه، مما سمح بالولوج إلى توزيع اجتماعي جديد بلورت فيه الطبقات الوسطى بين ذهنية ومعرفية جديدة في مسألة الثروة، والاقتصاد، والعدالة، والحرية، والمساواة كمفاهيم جوهرية. في حين أن ما نسميه طبقات وسطى في الجنوب لا يعدو كونه شرائح برجوازية، تسعى للاستمتاع بمدخراتها، دون أن تشعر أن عليها واجباً سياسياً واجتماعياً؛ لذلك يفقد مفهوم الربح عندها صفة المحرك الذهني الذي يميز المجتمعات الغربية.

لجأ الغرب دائماً، في ضوء هذه المقاربة، إلى محركاته الخمسة خلال تنفيذ مشاريع سيطرته على العالم. يشرح معتوق كيف استخدمت بعض التجارب الغربية معادلات السيطرة هذه منذ اكتشاف القارة الأميركية (١٤٩٢)، واجتياح العسكر الأسباني والبرتغالي أراضيها، ونشوب الخلافات القوية فيما بينها، ثم حين بادر الهولنديون إلى غزو الأسواق الآسيوية بعد قرن، حيث تبعهم الإنكليز والفرنسيون.

كانت الحصيلة أن بريطانيا أسست لنفسها إمبراطورية عظمى، وبشكل أقل فعلت فرنسا، وفتحت شهية الألمان الاستعمارية، واتفق الجميع على السيطرة على العالم. يعتمد الغرب حالياً على محركي الهيمنة والربح لاختراق أسواق جنوب شرق آسيا والصين، وتمسك بقوة بمصادر



التكنولوجيا، ونوعية السلع المنتجة، ومعاييرها، وتسويقها، وهذا يعني أن حصة المعرفة التي تمكن الصينيون من انتزاعها مقدر، وممنوحة ومتواضعة، وقابلة للمراجعة. فالعقل الغربي تخلى عن استراتيجية المدفع هناك، والتي كانت معتمدة أيام حروب الأفيون، واستبدلها اليوم باستراتيجية اختراق ساكنة.

أما الدور الياباني، ورغم أهمية تجربته، فلم يقدم أي معطيات جديدة ومجددة في أي من الحقول ما عدا الحقل التكنولوجي. فاليابان لانزال رغم ما حققته، دول طرفية بامتياز على المستويات السياسية، والثقافية، والاقتصادية، كما يرى المؤلف، الأمر الذي يجعل من هذه البلاد جزءاً من تخوم الغرب لا أكثر.

طبقاً لهذا المنطق يتابع المشروع الغربي سيره بالتكيف مع كل ثقافة في كل مرحلة بمرونة لافتة. وليس في هذه الخلاصة التي يقدمها المؤلف انبهار بالتجربة الغربية، بل هي دعوة لفهم مرتكزات التفوق، والسيطرة الغربية.

والواقع أنني ما إن انتهيت من قراءة هذا الكتاب حتى تذكرت كتابات الأميركي البروفسور ألفن توفلر الذي باع أحد كتبه "صدمة المستقبل" أكثر من ٢٧ مليون نسخة خلال تسعة أشهر، وتتلذذ على يديه اليوم نخبة من صانعي القرار، ومجموعة المستقبلين Futurists. يتحدث توفلر عن الموجة الحضارية الثالثة، حيث صارت المعرفة تمثل مركز المحور في ثالوث القوة (المعرفة - العنف - الثروة) وهو يقسم الأمم والتحالفات إلى أنواع ثلاثة: تلك التي تقوم قوتها في الغالب على واحد من هذا الثالوث، وتلك التي تستند قوتها إلى اثنين منه، وتلك التي تتوزع سلطتها الدولية توزيعاً متوازياً على هذه المصادر.

في الحرب الباردة حافظت الولايات المتحدة على هذا التوازن، على النقيض منه ذلك كانت قوة الاتحاد السوفياتي. وبنبه توفلر إلى أن أسوأ ما في العنف أنه يتصف بعدم المرونة، ولا يصلح إلا للعقوبة، لذلك هو في عصرنا أدنى أنواع القوة. في المقابل الثروة أداة أفضل لممارسة القوة، ومحفظة النقود الثمينة المتعددة التأثير، وتستعمل للعتاء والمنع، وهي أكثر مرونة. ويمكن تصنيفها في الوسط بين أنواع القوة.

أما أحسن أنواع القوة فتأتي من إتقان تطبيق المعرفة. فالقوة العالية النوع تتضمن الفاعلية، والمعرفة قد تجعل الآخرين يحبون طريقك في العمل، أو تقنعهم بأنها من صنعهم. والمعرفة لا تنضب كما الثروة، والنقود لا يمكن أن تبتاع كل شيء، والمحفظة المتخمة قد تغدو فارغة بعد حين. أما المعرفة فإنها لا تنضب، إذ بإمكاننا دائماً أن ننتج المزيد منها. هكذا كانت الدراسات الاستشرافية المستقبلية منذ أواسط السبعينيات، وهكذا كانوا يفكرون ويعيدون قراءة تجربتهم، لكنها تبقى قراءة غربية لتجربة غربية.

وميزة كتاب الدكتور معتوق أنه فاتحة متميزة لعقل عربي يقرأ التجربة الغربية معرفياً من داخلها.